خدمة الروم الكلاب » فقالت عفراء بنت غفار الحميرية « صدقت والله يا بنت الأزور ، نحن والله فى الشجاعة كما ذكرت ، وفى البراعة كما وصفت، لنا المشاهد العظام، والمواقف الجسام . ولقد اعتدنا ركوب الخيل، وهجوم الليل . غير أن السيف يحسن فعله فى مثل هذا الوقت ، ولقد دهمنا العدو على حين غرة ، وما نحن الا كالغنم بدون سلاح » فقالت خولة « يا بنات التبابعة، خذوا أعمدة الخيام وأوتاد الأطناب ، نحمل بها على هؤلاء ، فلعل الله ينصرنا فنستريح من المعرة » فقالت عفراء « والله ما دعوت إلا ما هو أحب إلينا » ثم تناولن الأعمدة وتقدمتهن خولة وهى تقول لهن لاينفك بعضكن عن بعض ، وكن كالحلقة الدائرة ، وأوسعن أرجل أفراس القوم ضرباً ، ولا تتفرقن فيقع بكن التشتيت ، ثم هجمت وهى تقول :

نحن بنات تبع وحمير ... وضربنا فى القوم ليس ينكر
لأننا فى الحرب نار تسعر ... اليوم تسقون العذاب الأكبر

وما هى إلا جولات حتى خلصن الى المسلمين .

هذان موقفان من مواقف البطولة فى هذه للمرأة العربية المسلمة ولقد كان لها رضوان الله عليها مواطن أخر غر صالحات . جعل الله منها اسوة حسنة لمرأة اليوم ، هداها الله أقوم طريق .

م . أسعد طلس

في الأدب الفرنسي

٥ - الدوق دى لاروشفوكو

للدكتور حسن صادق

ثم انتقل الى وصف عواطفه فقال « إنه رحب الاناة ، ناصح السريرة ، لا يتملكه الغضب ، ولا يضمر لاحد من الناس العداوة والبغضاء » . وعقب هذا الوصف قال : « لست مع ذلك عاجزاً عن الانتقام لنفسى اذا اعتدى أحد على أو أساء الى شرفى . وفى هذه الحال أومن بأن الواجب يقوم فى نفسى مقام الحقد ، ويأمرنى بأن أتم انتقامى فى صلابة وعزم »

وليس فى هذا القول شذوذ أو غرابة ، ولكن ما يقوله عن الشفقة يثير الدهشة والعجب : « إنى قليل الشعور بالشفقة ، وأستريح الى ذلك حد الراحة . ولكنى اذا رأيت انسانا جمجمت به المصائب ، بذلت غاية جهدى فى مواساته . وأعتقد حقاً أن من الواجب على الانسان أن يسلك كل السبل التى تؤدى الى اظهار الشفقة على من تصيبه الارزاء والمحن ، لان البائسين أغبياء الى درجة تجعلهم يجدون فى اظهار الشفقة عليهم والرثاء لحالهم راحة وعزاء . وأجد من الحزم إظهار هذه العاطفة دون الشعور بها صدقاً ، لانها لا تصلح لشىء فى دخيلة الانسان ولا عمل لها إلا إضعاف القلب وتحطيمه ، ويجب النزول عنها للدهماء لانهم لا يفعلون شيئاً بايحاء العقل فهم فى حاجة الى عاطفة تحفزهم الى العمل »

وقوله هذا يعبر أبلغ تعبير عن روح القرن السابع عشر الذى عرف الناس فيه بصلابة القلب وضعف الحساسية . كانوا أثناء الحرب الاهلية يدمرون نهارا ويقتلون ، ثم يرقصون ليلا ويمجنون ، وكانوا يتحدثون عن التعذيب والقتل فى بساطة الحديث عن الدعابة الفرحة ، والفكاهة الشهية .

ويجمل بنا فى هذا المقام أن نذكر رأى ثلاثة من قادة الفكر فى هذه العاطفة ، لنرى الفرق الشاسع بينهم وبين لاروشفوكو . فمونتنى [١] يقول : « انى شديد الميل الى الرحمة والوداعة » . وديكارت [٢] يرى أن ميزة النفس الكبيرة « أن يكون شعورها

(١) ١٥٣٣ — ١٥٩٢ فيلسوف فرنسى وكاتب أخلاق خالد الذكر . تعلم اللاتينية طفلاً ، ولما بلغ السادسة من عمره كانت هذه اللغة هى الاداة التى يخاطب بها الناس . وفى عام ١٥٥٦ أتم دراسة القانون واشتغل بالقضاء عام ١٥٧٠ . ثم اعتزل منصبه ووقف أوقات فراغه على البحث والدرس والسياحة . ويدين بشهرته الى كتاب واحد وضعه وسماه « تجارب » لأنه كما قال أراد يجرب ملكاته الطبيعية . وقد جمع فى هذا الكتاب موضوعات فى التاريخ والفلسفة والسياسة والأدب وصور فيه نفسه والانسانية وكون آراءه فى الانسان من الاختلاط بأهل عصره وملاحظتهم، ومن كتب القدامى كبلوتارخوس وسينكا . وهو يعتقد أن العقل عاجز عن ادراك الحقائق الميتافيزيكية بدون وحى أو إلهام الاهى . وكان يحرص على دين أبويه ، ولكن روح المسيحية لم ينفذ الى قلبه . وهو وافق فى اعتقاد بعض الناس ومتشكك فى ملة البعض الآخر . وكان من الناحية الاخلاقية أبيقوريا ، ولكنه كان يؤمن ببعض فضائل، مصدرها الرضاء بالقدر والصبر على المكاره ، وبقوة الارادة ، وأسلوبه ظريف فرح حى نضير

(٢) ١٥٩٦ — ١٦٥٠ فيلسوف فرنسى عظيم ، صاحب مذهب خاص يقتضى التجرد من كل المعلومات السابقة والبناء من جديد على نور العقل ، أى اتخاذ الشك سبيلاً الى اليقين . وقد بدأ بالشك فى الوجود ثم ثبت له أن آلة الشك هى الفكر ، فآمن بوجود الفكر والمفكر

بآلامها أضعف بكثير من شعورها بآلام غيرها » . ويتطلب لابرويير[1] من النفس العالية « أن تكون قوية الشكيمة فلا تلين صعدتها إلا أمام عاطفة واحدة هي الشفقة »

ومما يدعو الى العجب أن لاروشفوكو الذي ينكر هذه العاطفة في مقاله ومواعظه ، يقرها في مذكراته ورسائله . فقد كتب عن ثورة الفلاحين في (بواتو) التي سبق ذكرها في تاريخ حياته يقول : « لا أنكر أن بؤسهم جعلني أنظر بعين الشفقة الى تمردهم » . ثم طلب من الوزير ما زاران في ذلك الوقت أن يمنحه حق العفو . ولما أجيب الى ما طلب أحسن استعمال هذا الحق ، فلم يخدش شرفاً ولم يسفح دماً . وقبل موته بقليل أي في عام ١٦٧٤ كتب الى الآنسة دي سكودري يقول : « بودي لو تنفق سوق الرحمة وتصبح بدعة يولع الناس بها ، فلا يقع بصرنا بعد ذلك على بائسين » . وكثيراً ما رأته مدام دي سفنيه « متلبساً بالحنان » ، فأدركت أنه يظهر من عواطفه وقلبه غير ما يبطن . ويغلب على ظننا أن هذا الرجل لم يميز طبيعة نفسه من الأثر الذي أنشأته فيها البيئة والبلاط . فقد اشترك في الدسائس ورأى الأمراء والعظماء يتكالبون على متاع الحياة ، ويجدون في البحث عن مصلحتهم الذاتية في جشع وخسة ، فكرههم واحتقرهم وقسا في الحكم عليهم ، مع أنه بطبعه كريم رحيم . وأثر البيئة هو الذي جعله يخلص الود لعدد قليل من الناس اختارهم قلبه ، وهذا شأن المتشائمين أمثاله ، يضعون كل افتقارهم الى الحب في بعض أفراد أعزاء عليهم . وهذا الافتقار الى الحب هو جوهر نفورهم من الناس

وكان لاروشفوكو الى جانب الصفات التي سبقت ، طموحاً ولو أنه ينكر ذلك . لم يستحوذ عليه طموح ريشليو ، أو على الأقل عجز عن بلوغ شأو هذا السياسي العظيم ، فتمتع بالسمو وراء الحصول على لقب لزوجه ، والسماح له بدخول قصر اللوفر في عربة . فلما أخفق في سعيه ، اقتصر طموحه على كتابة «المواعظ» وقد حال خجله دون دخوله مجمع العلماء لأنه كان يعجز عن الكلام أمام جمع كبير من الناس ، وتقليدات المجمع تفرض عليه أن يرد على خطبة الاستقبال بخطبة أخرى وقلما كان يجيد الحديث إلا في الصالونات الأدبية التي يؤمها عدد قليل من الأصدقاء الأخصاء . وكان من عادته أن يتكلم قليلا ، وينفر من الثرثارين الذين يدخلون الخطابة في الحديث ، ويفرضون الصمت والاصغاء على غيرهم . ويعتقد أن « المصلحة الذاتية هي روح عزة النفس أو الأثرة » حتى في السمر والمناقشة ، فاذا لم يفكر كل إنسان إلا في نفسه وفي قوله ، شل الآخرين وبعث في نفوسهم الضيق والضجر ، ويرى أن أمثل الطرق لانعاشهم وإنقاذهم من الملل هو الاصغاء إليهم وإظهار الابتهاج بقولهم . ومن وصاياه المأثورة : « يجب الاصغاء الى المتكلم مهما كان حديثه واهي الرباط طائش الغرض عاريا من المعنى . ولا أوصي بتجنب معارضته ومقاطعته فحسب ، بل أوصي أيضاً برياضة النفس على احتمال روحه وذوقه والاطمئنان إليهما والتشبع بهما ، وإطراء قوله بقدر ما يستحق ، ووضع هذا الاطراء في قالب أميل الى الحقيقة منه الى اللياقة والمجاملة » . وعرف بالتجربة واللاحظة أن لا شيء أبغض الى النفس وآلم للأذن من أن يجعل الانسان نفسه محور الحديث في كل موطن ، فتجنب ذلك جهد المستطاع

وكان يكره من المتكلم لهجة الثقة المستبدة والتعبير الذي يدل على البحث الطويل واعنات القريحة ، ويكلف بتوزيع القسط بين المعاني والمباني . ويميل الى الايجاز الممتع ويفخر بذلك « من شأن العقول الكبيرة أن تدل بقولها الموجز على كثير من المعاني . ومن صفات العقول الهزيلة أن تتكلم كثيراً ولا تقول شيئاً » . وقد أجاد الايجاز في مواعظه الى درجة كادت تبلغ حد الكمال . ولنضرب مثلا هذه الموعظة : « يملك الانسان دائماً ما يكفي من الجلد لاحتمال آلام الغير » ، فليس من المستطاع « تكثيف » التهكم في كلمات أقل من هذه . وهذا الايجاز يجعل « للمواعظ » قيمة تاريخية هامة ، لأنها تعين طوراً جديداً للنثر الفرنسي . وقد قدرها فولتير حق قدرها فقال : « يرجع أكثر الفضل في تكوين ذوق الأمة وجعلها تتعشق الاصالة والدقة الى مواعظ لاروشفوكو »

(البقية على صفحة ٩٥٩)

(١) ١٦٤٥ — ١٦٩٦ أحد حكماء فرنسا وفلاسفتها الأخلاقيين . كان معلماً لحفيد الأمير دي كوندي . وفي عام ١٦٨٨ نشر كتابه الخالد «خصال» مع ترجمة كتاب ثيوفراست الفيلسوف اليوناني المشهور وعنوانه « خصال » أيضاً ومن يقرأ كتابه يلمح فيه أثر لاروشفوكو رد كل . وقد عمل فيه على مظالم عصره في أسلوب لاذع أخاذ ، وعلى التفاوت الأليم في المعيشة بين الأغنياء والفقراء . وفي عام ١٦٩٣ أصبح عضواً في مجمع العلماء